# الشعر الشعبي الجزائري و الثورة
## بعض المضامين والأدوات الفنية

بقلم
أ/ أحمد قنشوبة
قسم الأدب العربي. المركز الجامعي زيان عاشور. الجلفة. الجزائر .

**ملخص :**

**يحاول هذا المقال أن يستقرئ بعض النصوص الشعرية الشعبية التي قيلت أثناء الثورة في مناطق مختلفة من الوطن ، مركزا على أهم المضامين المسيطرة في هذا النص. ولاسيما موضوع الإعلام و الدعوة إلى الثورة ...**

**كما يعرج المقال على بعض الأدوات الفنية الشعرية التي وظفها الشاعر لأداء هذه المضامين. كقضية الرمز و التناص .**

**Résumé**

***C'est un essai d'une enquête à partir de quelque textes poétique populaires ,produits pendant la révolution de libération nationale en diverses régions du pays***

***Notre enquête se consacre au contenu où domine l'information de la population pour la faire appel à la révolution.***

***L'essai passe par quelques outils artistiques que les poètes les ont déployés pour interpréter ce contenu ce contenu tel que le symbole et l'intertextualité ...etc.***

---

لقد ارتبط الشعر الشعبي الجزائري منذ بداياته الأولى باللحظات الحاسمة في تاريخ الجزائر، لاسيما عند تعرضها لحملات الغزو ، إذ وقف الشاعر يسجّل حملات الصليب ، ويدعو بقصائد حماسية إلى ردِّ هذا العدوان وضرورة الانتصار للهلال في مواجهة الصليب، «فالشعر بصورة من الصور هو فن الذيوع والانتشار لما يحتويه بناؤه الموسيقي في اختيار الكلمات وطريقة وضعها إلى جانب بعضها البعض من قدرة على الانتقال من الفم إلى الأذن إلى القلب » [1]

وفهِمَ الشاعرُ الشعبيُّ أنّ شعره وسيلة من وسائل الدّعم والتجنيد للشعب من أجل الحفاظ على هويته .

ولعل أقدم قصيدة شعبية سجلتها الذاكرة الشعبية ودواوين الشعر الشعبي قصيدة الوليّ المتصوف المجاهد الأخضر بن خلوف الإدريسي المغراوي [2] الذي حضر موقعة «مازغران » سنة 1518 بين الأسبان بقيادة « شنظا ظوش» وبين الجيش الجزائري التركي بقيادة حسن باشا ، نجل خير الدين .

وقد أبلى فيها الشاعر بلاءً حسناً، كما سجّلها في قصيدة كاملة هي قصة «مازغران »، يقول في بعض أبياتها [3] :

يافارس من تم جيت اليوم غزوة مازغران معلومـــــــة
ياعجلانا ريض الملجـــوم ريت أجناب الشلو موشومة
ياسايلني عن طراد اليـــوم قصة مازغران معلومـــة

* * *

ياسايلني كيف ذا القصـــة بين النصراني و خير الدين
اجتمعوا في برّهم الاقصـــى بجيش قوي جاوا متهدين
ترى سفون الروم محترسة صبحوا في المنا اعداى الدين

و في آخر القصيدة يسجّل الشاعر انتصار الأمير حسن بن خير الدين في الواقعة، ويثني عليه، إذ إنه أرجع للبهجة ( اسم العاصمة الجزائرية ) بهجتها وفاز بغنائم الحرب، يقول الشاعر [4]

الامير حسن يوم مازغـــران اخلف الثار من العدو تحقيق
رجع للبهجة عاصمة البلـدان بغنايم شتى و نصر لبيـــــق
ادعو له يا ناس بالغفـــــــران يجعل له ربي مسلك و طريق

كما سجل شاعر آخر هو « ولد عمر » حدثاً خطيراً عاشته الجزائر في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي ، حين قصفت الدنمرك الجزائر بالقنابل سنة 1790، فقال الشاعر : [5]

بسم الله نبـــدا على وفـــا ذا القصة تعيـــــانا
قصة ذا البونبة المتلفـــة كيف جابـــوها اعدانا
واضحه وعلى البعد واقفـه ما قرب لحـــــذانـا
ياربي ياعالـــم بالخفـــا اهزم جيش اعدانـــــا
ياربي يالعالم بالخفا

ثم يذكر الشاعر تاريخ الواقعة بالتقويم الهجري ، حرصا على التوثيق التاريخي كعادة أغلب الشعراء الشعبيين .

تمت ذا القصة الموافقـــــة في شهر الميلود عز يقين
بعد المايـة و الالف لاحقة في الرابع من ثمانيـــــن
تاريخ البونية المحققـــة سقط ظاهره يا سامـعين
« ولد عمر » يبغى كيما شفا تدعوا له بدعا ظاهر زين

وكذا حين احتلت مدينة الجزائر ، كان الشعر الشعبي حاضراً يـدوِّن للتـاريخ الكارثة التي حلَّت بالأمة بحزنٍ وأسفٍ ، فهذا الشاعر عبـد القـادر أحـد شـعراء العاصمة وأعيانها يقول في ذلك شعراً ، يذكّرنا برثـاء المـدن والممالـك الأندلـسية ، يقول الشاعر [6] :

الايام يااخواني تبدل ساعتهـــــــا والدهر ينقلب و يولي في الحيـن
بعد ان كان سنجاق البهجة ووجاقها الاجناس تخافها في البر وبحرين
سنين راد ربي ووفى ميجالهـــــــا واعطاوها اهل الله الصالحيـــن
الفرنسيس حرك لها و خذاهـــــــا لاهي ميات مركب لا هي ميتين
بسفاينه يفرص الحرب قبالهـــــــا كي جاوا في البحر بجنود قويين
غاب الحساب وادرك وتلف حسابها الروم جاوا للبهجـــة مشتديـــن
راني على الجزاير ياناس حزيـــن

وقد تلقَّف الرواة الشعبيون هـذه القـصيدة وأنـشدها المـدّاحون في الأسـواق والمناسبات الأخرى، وأخـذوا يحرِّكـون نفـوس المـستمعين مـن خلالهـا، لاسـيما بالتركيز على مقاطعها، مثل قول الشاعر :

موت الجهاد خير من حيين

بل اعترف الأوروبيون أن القصيدة ساهمت فعلا في إضرام نار الثورات كثورة «ابن زعمون » سنة 1830، و ثورة «مليانة » سنة 1851 [7] .

كما كانت للقصيدة فائدة تاريخية إخبارية ، فقد نقلت كيفية تعاطي الناس مـع الاحتلال، وحالتهم النفسية، وإصرار العدو على قهرهم، و أبدعت في المقارنة بـين حال الجزائريين عهد الأتراك، حين قال الشاعر :

مزغنة سلطانة المدن بالجملة الاجناس تخافها في البر و البحريـن
و بين الجزائر المحتلـــــة : زال الكلام عنها يا مسلميـــــــن

كما ذكرت القصيدة موقفاً يسجّل للتاريخ ، هو الموقـف المخـزي لليهـود مـن الاحتلال، وهم الذين عاشوا تحت أكناف الجزائريين آمنين ، فقد كانـت نـساؤهم يزغردن فرحاً بالاحتلال كما يقول الشاعر :

حتى اليهود فرحوا لينـــــا ونْساهم الكلاب تزغــرت

وحين اندلعت ثورة التحرير المباركة كان الشاعر الشعبي الجزائري جندياً مـن جنودها، يسجل مآثرها ويدعو إلى مؤازرتها، وينقل أحداثها من منطقة إلى أخرى، راوياً شعره في الأسواق والأفراح والمقاهي والبيوت والتجمعات ، متخيراً الـصور الجميلة والرموز المعبرة لمجاهدي الثورة ، ناعتاً الذين خانوها بأبشع الـصفات ، مؤديـاً بذلك أدوارا كثيرة مثل : الإعلام والدعاية ، وحشد الهمم وشحذها للانضمام للثـورة، على الرغم من أن أشعاره ليست بالضرورة « نابعة مـن فلـسفة سياسـية وإنـما ارتـدت ملامح السياسة ، وأشارت إلى القضايا بالفن الشعبي المعبئ بالسذاجة الحلـوة وعفويـة الخاطر السريع، وانطوت على إرادة في التغيير إلى الأفضل » [8] .

فهذه الشاعرة المجاهدة فاطمـة منـصوري [9] مـن مدينـة وادي سـوف تبـدع قصيدة في بداية سنة 1956 حين أرسل لها مجاهد يسمى مبروك رسالة يخبرها فيهـا بأنه مازال على قيد الحياة ، بعدما ظن الناس أن فرنسا قتلتـه ، فأذاعـت هـذا الخـبر بشعرها قائلة [10] .

جواب البعايد من « مبروك » وصلنا
و أطلق سراحه يا إلهي لينـــــــــا
عليـــك السلام و ان شاء الله تجملنـا

حتى إن هذه الشاعرة قد ألقي القبض عليها ، حينما مثّـل شـعرها خطـراً عـلى المستعمر ، وطلب منها القائد أن تكفّ عن قول الشعر ليطلق سراحها ، لكنها أبت وردّت عليه بالقول : [11]

حالف ما نبطّل الافتان كانش لربحنا الحريـة
عنها نسكـن في الجبـــال ندوها بالفنطازيـــــة

عنها طلعنا لجبل الاوراس وتوطنا في الاريـــــاس
عينها لا تعرف الانعـــــاس وطعم الرقدة لا يليق بيه

وقد قصدت الشاعرة بقولها :

حالف ما نبطل الافتـــــان كانش لربحنا الحريـــــة

أنها لن تتوقف عن إثارة المشاكل والفتن أو « الافتان » لأنها أدركت أن شعرها يملك هذه القوة للتأثير على الجماهير ، ودفعهم للتأثر بالمجاهدين الذين اختاروا حياة الجبال للدفاع عن وطنهم ، وقد زاد من إصرارها على اتخاذ شعرها وسيلة كفاح ، دعوة المستعمر لها بأن تكف عن إثارة الناس بشعرها .

كما كان الشاعر متابعاً لحركة الثورة وأحداثها ، وما ينتابها من انتصارات وحتى هفوات إن وجدت ، وها هو الشاعر المجاهد دريسي البشير من سيدي خالد ( بسكرة ) يدعو في أثناء الثورة إلى عدم الاستسلام للخلاف ولو قيد أنملة، وإلى توحيد الصفوف حتى يصل الوطن إلى برّ الأمان [12] .

يا ربي يا خالقي بينا تلطـف ووصلنا يا خالقي إلى الامال
بجاه الرسول طه مشـــرف محمد خلاصنا يوم الحصال
سجل يا تاريخ في قلب الصحف اشهد يا زمان ما قمنا باعمال
قمنا بالكفاح من اجل الهـدف ضحينا بنفوسنا زدنا بالمال
واعطينا العهود للي راح سلف وامضينا باليد انطقنا الاقوال
هذا عهدي ليك بيميني نحلف عهد الشهدا الاحرار الأبطال
يارب العباد وحد هذا الصف تتحد رجالنا قبل الاجال
يصبح الاستعمار مهزوم مكتف ويولي محقور واذنا بو الارذال

**بعض الأدوات الفنية :**

إن الكلام عن الأدوات الفنية التي استخدمها الشاعر لإيصال هذه المضامين، ولاسيما مضمون الإعلام والدعوة إلى الجهاد ونصرة المجاهدين تقتضي منا أن نقول إن هذا النص يصبح ذا وظيفة معينة ، يؤديها في سياق تداولي معين يراعي فيه الشاعر الشروط والوسائل التي تسمح بالتأثير في المتلقّي وإحداث التفاعل ( INTERACTION ) معه [13] .

ومن هنا يتكئ الشاعر في كثير من الأحيان على الخلفية الثقافية والعقيدية المشتركة بينه وبين المتلقي للقصيدة .

ويمكن أن نلاحظ أن أهم هذه الأدوات هي استعمال معجم أو ألفاظ/ علامات مشحونة بالإيحاء العقيدي ، أو ما يسمى « بالألفاظ العاطفية والقيمية سواء كانت أسماء أو صفات أو أفعالا ».[14]

ونجد هذا مثلا في قصيدة الشاعر المجاهد يحي بختي من الجلفة [15]:

يارب ياخالقي طف ذا الهـــول حشـــــمتك بجاه طه المدانـــــي
ماذا من اسود في السجن المقفـول خوتي من ذا الهم قلبي نوانـــــي
من ذا اللفعة سمها واعر قتـول مـــــن تبعها راه فعلو شيطانـي
ما عندوش النيف في فعلوا مذلول ما يدخل في دين طه المدانـــــي
طلبتك يا خالقي طف ذا الهـول عين المسلمين على الزمـــــان
ذل الكفرة ذوك عديان الرسول واهبي قاع أصحاب فعل الشيطان

فهذا الجزء من النص يحشد كل الألفاظ القيمية المنكرة ، ليسقطها على الفرنسيين وأتباعهم : ( الكفرة ، عديان الرسول ، أصحاب فعل الشيطان ، ما عندوش النيف ، في فعلو مذلول ، ما يدخل في دين طه المداني ) .

وحتى الحاج أبوكريرة من الأغواط يستعمل الطريقة نفسها من أجل الإيحاء بتميز الكافر عن المسلم حين يقول : [16]

الف و تسعماية التاريخ المقال في عـام الســـتين ليام امرارو
من ربي ما هيش منكم يا كفار هذي الشيئ مكتوب عنا باقدارو
يا شينين الدين عديان المختار راه وقـــف تيجا لكم حد نهارو

حيث نجد لفظة: كفار ، تدعمها لفظة ( شينين الدين ، عديان المختار ) ، بوصفها ألفاظا قيمية تحمل مرجعية عقيدية لاسيما حين توظف مقابلا و مضاداً لكلمة «المسلمين».

والشاعر يجعلها بؤرة في شعره ، من أجل أن يحدث حيّزاً انفعالياً تواصلياً بينه وبين الجماهير المتلقية للقصيدة.

ولعل هذا يرفد الوظيفة التواصلية الانفعالية التي أداها النص الشعري الشعبي أثناء الثورة ، إذ لم يكن رافداً للمقاومة المسلحة فحسب ، بل كان وسيلة لمقاومة محاولات المسخ الحضاري ، وسلخ المجتمع الجزائري عن دينه ولغته ومرجعيته العقائدية الحضارية ، سواء عن طريق الإعلام المصور أو المكتوب والمسموع أو السينما المتنقلة بين البوادي والمداشر.

ولعل الرمز الفني من الأدوات التي أسهمت هي الأخرى في تعزيز هذه الوظيفة التفاعلية التواصلية في آن واحد . فقد أدرك الشاعر دور الرموز الدينية خاصة في تفعيل الدور التأثيري للقصيدة ، ولهذا تنوعت الرموز، ولاسيما صورة شخصية علي ـ كرم الله وجهه ـ بوصفه بطلا يرمز لانتصار الإسلام على أعدائه وصورة الصحابة ، و كلتاهما أصبحتا رمزاً لكثرة استعمالهما من قبل الشعراء.

ولعل الذي أعطاهما كل هذا الحضور هو فنّ المغازي الشعري ، الذي انتشر كثيراً في الأوساط الشعبية ،لاسيما في فترة الكفاح المسلح إبان الثورة ، بوصفه فنًّا شعرياً ملحمياً ذا وظيفة تتوافق مع مقتضيات هذه الفترة ، يذكّر الناس ببطولات القادة المسلمين الأوائل ، ويحشد عواطفهم تجاه الصراع الحتمي الدائم بين الكفار والمسلمين.

ولهذا فإن ظهور هذه الرموز في الشعر الشعبي يعدّ صدى لتأثّر الشعراء والجماهير بفنّ المغازي وأبطاله . ويعترف بهذا حتى الشاعر الثائر الحاج بوكريرة من الأغواط :

لا حونا في السجن عنا لامن سال حتى المحبين عنا مـــــــا دارو
احنا من عرب اشنا نسمّو فال قاشينا محظي مدلال بثمـــــــــارو
رانا مشنوعين من قوات الايمان سيرتنا فيها العلما حـــــــــارو
ضرب الصحابة و حربة شطار عنهم ما طاقوش وين مـــا دارو
رهبوهم شوف تقلبت الابصار انصر يا الهي ما يطيق لقحـــــارو
الجبهة فاس ذكير و الكفره فخار كي يتكسر ما يكونش جبـــارو
دارو فيهم كي ما واسى حيدار قداهن ملك كسار حمـــــــارو
مير الصحابة اللي فايت الابرار اهل الجماعة اللي يطيق لقحـــارو

كتاب الغزوات فايت صار و صار حرب اليوم صعيب تتعد خبارو

وقد كان رواة المغازي الشعرية يسقطون مضامين رواياتهم على الواقع المعيش فالمغازي تحكي حروب المسلمين مع الكفار وتشيد بشخصيات البطولة الإسلامية كالإمام علي وعبد الله بن جعفر.. « و من المؤكد أن جمهور المستمعين وهو يستمع إلى هذه المغازي يحدث عملية زحزحة للأحداث التاريخية فتصبح كأنها تصور هي بنفسها واقعه ، وفي هذه الحالة يصبح هو امتداداً لجيش المسلمين الأول ويصبح مستعمر بلاده صورة مكررة لجيش الكفار»[17]

بل يظهر أحيانا توظيف الشاعر الشعبي في الثورة حتى للعناصر الأسطورية التي استمدها من المغازي التي تقوم كما هو معروف «بالتأليف بين عناصر خيالية وأخرى واقعية تتجسد الأولى في الأدوات السحرية والقدرات الخارقة للعادة » [18] .

فالشاعر طيباوي محمد بنيلي من الجلفة حين يصف المجاهدين يدعم هذا الوصف بذكر (سيف علي) التي صيغت حوله الحكايات والاساطير، فهو الذي يسقط مائة كافر إذا أشهر سيفه عن يمينه ، وعن شماله يقول الشاعر [19] :

جيش مظفر ناض دمر الاستعمار عْقُبه و طيور و اشبال معـــــاها

تجبد قلب اللي يقشوه بالاظفــارو«ثرية حيدار» ناضت لاعداها

وهو يقصد بثرية حيدار (حيدر)سيف علي . ويظهر في هذه الأبيات رمز آخر يكثر توظيفه عند الشعراء وصفاً للمجاهدين وهو رمز الطيور ، فالشاعر يطلق عليهم لفظ: العقبة (جمع عقاب) و الطيور، ولاسيما أن الشاعر يصفها في صورة جميلة معبرة : صورة الفتك بالطريدة « تجبد قلب اللي يقشوه بالاظفار»

ونجد مثل هذا الرمز عند الشاعر مقدم المختار من الإدريسية حين يقيم مقابلة بين المجاهدين والخونة[20]

أولاد الرسول أمثال طيوره و يجو مصبين من روس الكيفـــــان

وهنا يظهر بالإضافة إلى الرمز أثر التناص الديني أو الاقتباس من القرآن الكريم حيث يقوم الشاعر بامتصاص المعنى القرآني الوارد في سورة الفيل الذي يصف «طير أبابيل» و هي تدمر و تقصم جيش أبرهة ، ليجعل ذلك منسجماً مع فضاء القصيدة ،

ومع مقاصده التي يريد بها أن يقول: إن المجاهدين في الحقيقة ما هم إلا عقاب رباني يسلّطه الله على جموع الكفار: أمثال طيوره « ويجو مصبين من روس الكيفان » .

وهنا يصبح المجاهدون النازلون من الجبال بمثابة المعادل الموضوعي للطير الأبابيل.

وما دمنا قد تكلمنا عن تقنية التناص فجدير بالذكر أن نقول : إن الشعراء قد أكثروا من هذا التناص الديني والتاريخي لرغبتهم في تعميق الخلفية الدينية و التاريخية والثقافية للمجتمع الجزائري ، طالما أنهم كانوا يؤمنون بضرورة دعم الهوية العربية الإسلامية للشعب التي أراد الاستعمار أن يطمسها . ويأتي التناص هنا لتحقيق وظيفة دلالية أيضاً ، كما نلفي ذلك عند الشاعر المجاهد دريسي البشير من سيدي خالد(بسكرة) حين يطلب النصر من الله تعالى والتأييد ولمّ الشمل [21]:

يارب العباد و حد هذا الصف  تتحد رجالنا قبل الاجـــــال
يصبح الاستعمار مهزوم مكتف  و يولي محقور و اذنابـــو الارذال
و سلكنا كما سلك منها يوسف  وسط الجب ومعاه خوتو والاطفال
في مصر باعوه مملوك منصف  واشتراه اميرهم برخيص المـــال
يا ربي بجاه صاحب الكهف  زول عنا يالخالق كل اخبـــال
يصبح العلام مبسوط يرفرف  اخضر وابيض و سطو نجمة و هلال

وهنا يوظف الشاعر تقنية الإيجاز التناصية ، أو ما يسمى بالإحالة التاريخية والتي سماها حازم القرطاجي(بالإحالة المحضة) وهي أن يعتمد الشاعر بها على المشهور منها والمأثور ليشبه بها حالا معهودة ، فيقدم بذلك معالم دالة ذات مغزى [22]

ولعل المغزى الذي أراده الشاعر من إحالتنا إلى قصة سيدنا يوسف (عليه السلام) هي التنبيه إلى مضار الفرقة (فرقة يوسف مع إخوته) ، وإلى يقينه بأن الوحدة واللقاء فالانتصار سيكون مصير هذه الثورة من خلال انتصار سيدنا يوسف في الأخير وتبوئه مُلك مصر ولقائه أباه وإخوته.

**. الهوامش :**

1 ـ غالي شكري ، أدب المقاومة ، بيروت ، دار الآفاق الجديدة، ط02 ، 1979، ص ،317

2 ـ شاعر شعبي وفقيه متصوف ، عاش في القرن التاسع الهجري / و كان ميلاده في نهايات القرن الثامن الهجري ، وعمر طويلا (125 سنة تقريبا) و في عهده دخل الأتراك الجزائر ، ويقال أن نسبه شريف . ينظر: مقدمة ديوان سيدي لخضر بن خلوف شاعر الدين والوطن جمعه وقدمه محمد بن الحاج الغوثي بخوشة (بان خلدون للنشر و التوزيع ، تلمسان 2001/ ص:23/ 25).

3 ـ المصدر نفسه / ص:182 .

4 ـ المصدر نفسه .

5 ـ جلول يلس و أمقران حفناوي المقاومة الجزائرية في الشعر الملحون ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر 1975 ص:29 .

6 ـ مجلة آمال ، عدد خاص بالشعر الملحون ، إصدار وزارة الأخبار الجزائر عدد 04 نوفمبر – ديسمبر ص:73.

7 ـ المصدر نفسه ص:73.

8 ـ عبد الله البردوني/ فنون الأدب الشعبي : دار الحداثة / بيروت ط02 ، 1988 ، ص:233.

9 ـ شاعرة ومجاهدة من منطقة الوادي ولدت عام 1925 و توفيت سنة 1985.

10 ـ ديوان الشعر الشعبي (شعر الثورة) ، تقديم و تبويب : أحمد حمدي / إصدارات المتحف الوطني للمجاهد ، الجزائر :1994 ،ص :42 .

11 ـ المصدر نفسه ، ص / 39 .

12 ـ رواية السيد :غربي اخضر المدعو الحاج / نقلنا منه الرواية ببيته في الدوسن ولاية بسكرة بتاريخ :20/ 02/ 2004 .

13 ـ ينظر : غريب اسكندر، الاتجاه السيميائي في نقد الشعر العربي ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، 2002 ، ص 77 .

14 ـ المرجع نفسه ، ص78 .

15 ـ .....

16 ـ .....

17 ـ بورايو عبد الحميد ، البطل الملحمي و البطل الضحية في الأدب الشفوي الجزائري ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر 1988 ص 69 .

18 ـ المرجع نفسه.

19 ـ رواية السيد هراوة محمد ، إطار تربوي متقاعد أخذنا منه القصيدة: بتاريخ:10/ 02/ 2005 بحي السعادة الجلفة.

20 ـ أخذنا القصيدة من الشاعر في مدينة الإدريسية

21 ـ أخذنا الرواية عن الراوية/ غربي لخضر المدعو الحاج في بيته بالدوسن ولاية بسكرة بتاريخ: 20/ 05/ 2004 .

22 ـ غريب اسكندر مرجع سابق ص 83 .

# البحوث والدراسات باللغة الفرنسية في العلوم الدقيقة والتكنولوجيا

(ترتيب الصفحات من الجهة الثانية للمجلة)